

مصر منذ تسعين سنة

- تسانغ الفرنسي دي زفال -

(٦)

الذراويش

خرجت من عند قنصلي بعد العشاء وكان خادمي البريري ينتظري عند الباب ولد
 أرسله عبد الله نرجاني ليرافقني الى منزلي ليلاً وقد اتف هذا ان يأتي بنفسه لئلا يحسب
 خادماً رخيصاً فقصي جزءاً من الليل في القهوة مع بعض التراجمة ثم دخل الى منزلي ونام .
 ونها كنت عجائزاً مع البريري في محلة الازبكية رأيت حركة غير عادية فالطرق والنهاوي
 مكتظة بالناس وفوق الحوائث المصاييح والزينات والاعلام . وشار الجوامع مزينة بالانوار
 والمؤذنون يرتلون الآيات القرآنية . ورأيت عند ساحة العتبة الخضراء ووراءها صواوين
 داخلها المقاعد والكراسي للجالسين وبينهم القراء والفقهاء يقرأون القرآن انشاداً وفي بعض
 الصواوين والحوائث جوقات الغنين وخاري الطبول والزامارين . ثم اجتزت من هناك الى
 ما بين حارة الانرفج والاقباط ترأيت في صحن احد الجوامع جماعة من الناس واقفين على
 شكل دائرة في وسطها اناس يشدون وحولهم اربعون او خمسون شخصاً يرددون ذكر الله
 على طريقته لم ارها قبل الآن . فوقفت اتفرج على هذا المشهد وعمما عن ارادة البريري
 خادمي وكان يدهني بقوة حتى اخرج من هناك خائفاً على زعمه من ان يتعدى علي احد من
 الجهلة لكوني نصرانياً افرنجياً ولكنني رأيت هناك كثيرين غيري من الاقباط واقفين
 يشاهدون تلك الحفلة الدينية وقد عرفتهم من جبابهم وعمائمهم السوداء . واني لعالم ان
 المسلمين يتسامحون كثيراً في ترك الاجانب يشهدون حفلاتهم الدينية . ولما لم اتمكن من اقتناع
 البريري باشارات واضحة قلت له ان ياخذني الى خمارة المسيحيين مواطني وكانت على
 مقربة من هذا المكان . ولما وصلت رأيت عنده جماعة من الاروام والاقباط يشربون الخمر
 فسألت عن تلك الزينات والانراح والمعلم التي رأيتها في تلك البقعة وعن الجمع المحدث في
 صحن الجامع وعن تشيد الفقهاء والمثليين فقال لي انها حفلة عيد لولي ذلك الجامع وهذا العيد
 معروف عندهم « بالمولد » وكل البيوت والحوائث حوله تزين تلك الليلة بالاعلام والشموع
 والازهار . وان تلك الحفلة التي رأيتها في صحن الجامع معروفة بحفلة « حلقة الذكر » حيث

يجمع الفقهاء وأرباب الطرق المنتسبون لطريقة ذلك الولي فيرتلون الآيات القرآنية والناس من حولهم وقوف يرددون ذكر اسم الله

فدعوته لأن يصحني إلى المكان المشار إليه لا تفرج على هذه الحلقة . ولما وصلنا كانت الحلقة في أجمل مظاهرها ورأيت الفائقين بالله كرقوقاً يتأملون يمينا ويساراً وبترنحون هياماً وهم يرددون ذكر اسم الله بسروراً والمنشدون يشيرون بقصائدهم عاطفة حب الله في صدور السامعين . وقال لي أسيروا فإن أسلوب الحلقة ليس من عقائد الدين الاسلامي وإنما هو اختراع قوم من الصوفية يعتقدون أن سعادة الروح في التجرد من المادة وهم بحسب الطريقة كأنهم يجرّدون من الجسم الحيواني لتسرح ارواحهم وتهم في حب الله . وأما القصائد التي يشدونها في وسط الدائرة فكلها من منظومات الشعراء الصوفيين . وقد رجوت أن يترجم لي بعض آيات من تلك الاشعار ففعل . وها أنا أقول بعض آيات منها :

ذاب قلبي من الوجد والغرام وجفوني لا تمض من الحب والهام
وجسمي مضى من السقام هل يا ترى أرى حبيبي ولو في المنام
في ظلام الليل انشد حبيبي العالي ودموعي على خدي كاللآلي
وفؤادي لي لظى الشوق يا حمام الدوح لم تبرح
قال على نراق الحبيب والবাদ احرق فؤادي (١)

وأرى أن الانشاد الروحاني هو بمثابة نشيد الانشاد في التوراة . وقال لي جان ستري بعد غد حفلات ذكر أكبر من هذه . وذلك في مولد النبي . ولكن يجب أن تشف بزي عربي صرف لأن هذا العيد يقع هذه السنة في يوم وصول المحمل ورجوع الحاج من الحجاز . وبين هؤلاء عدد كبير من حجاج المقاربة والجزائريين وهؤلاء على جانب عظيم من الحماس حتى أنهم لا يطيعون أن يروا في حفلاتهم الدينية اجنبياً . وخصوصاً إذا كان مثلك بزي الفرنجي

- الخدمة المنزلية -

وفي صباح اليوم التالي دعوت عبد الله ترجماني ولدت له أني عزمت أن لا أعود بعد إلى الفندق واشتريت إليه أن يمد لي انظما في أنزل عن يد الطياخ مصطفى . وفي السوق كثير من اللوم والدجاج والخضر والفاكهة ما عدا الاسماك التي تصاد من النيل وكلها تباع

(١) لم أتمكن من نظم هذه الآيات حسب وضعها الأصلي ولم أجد في قصائدهم من انشاد أو انشاد زعموا أو غيرها من شعراء انعام ما يطابق النظم من الاشعار ولذلك عرّفها تعريفاً حقيقياً ويطلب على طليق أنها من أغاني العصر الماضي

باتمان بخسة جداً . فالداخلة الصغيرة تشتري بفرش واحد والحمامة بنسف غرش وقال لي المسيو جان انه لا ينبغي في مصر سوى النعم والجنان وأما لحم البقر فلا وجود له . والحقير كثيرة منها نوعان شائعا الاستعمال وهما البامية والمرخية وليست معروفين عندنا في أوروبا . ومع رخص هذه المواد الغذائية رأيت بعد بضعة ايام ان نفقات المطبخ فاقت كثيرا المصاريف التي كنت أدفعها في الفندق وتجاوزت الحد الذي كنت اظنه قد كدت حينئذ صدق قول مواطني جان ان الخادم والطباخ والترجمان انفقوا على سرفتي . وهذا ما كان يشكر منه السياح من قبلي . فشاغوربان قال انه اتفق مالا طائلاً على معطيهم مدة اقامته بمصر . ودي لامارتين نفدت دراهمه قبل ان يتمكن من اقام سياحته وكثيرون من السياح لم يتمكنوا سوى بضعة اسابيع واضطروا ان يعودوا الى بلادهم قبل ان يشعروا سياحتهم في هذه البلاد لغاد ما عندهم من المال . واخيراً عزمتم على ان اقتني جارية فاستغني بها عن الطباخ والترجمان واقتصدت بمض النفقات حتى لا اضطر ان اعود الى فرنسا قبل اقام سياحتي في مصر وسورية ولبنان . واتفقت مع عبدالله على ان اذهب في اليوم التالي الى سوق الجوارى لاشترى جارية تقوم بخدمتي المنزلية

— وكالة سوق الجوارى —

في صباح اليوم التالي اصطحبت ترجماتي فاجتزنا في شوارع واسواق كثيرة الى ان وصلنا بعد ساعة الى منزل محاط بجدار عالي فدخلنا في بوابة كبيرة الى حوش واسع في وسطه بئر واشجار كثيرة من الجوز وقال لي عبد الله ان هذا المكان يدعى « وكالة الجلابة » او سوق الجوارى . فلما وصلنا الى آخر الحوش رأينا نحو اثني عشرة جارية من الزنوجيات والسودانيات متوسدات الثرى ومستندات الى الجدار . تسر اجسامهن ثياب بالية زرقاء وديشانين تدل على الكآبة واليأس . وحينئذ اقبل بعض الخفاسين ارباب هذه الوكالة فاستقبلونا بترحاب وسألنا احدهم عما نريد من الجوارى أسودانيات ام نوبيات ام حبشيات فقلت له بواسطة ترجماتي اريد ان اراهن كلهن لاني منهن جارية تصلح لخدمتي

فدخلنا الى المنزل وهناك غرف ارضية رحة لدخنا في احدها واذا هناك ست جوار سودانيات وزنوجيات جالسات على حصير قلا وقع نظرهن علي استغرقن في الضحك والقهقهة لغرابية لمبسي الافرنجي فلم اظهر شيئاً من الفيط وقد وجدت لمن عذراً في ذلك لاننا نظارهن لما تألف بعد مرأى رجل بقبعة طويلة ولباس ضيق . ورجتا كنت اولاً افرنجي وقت ايامهن . وكن لابات اثواباً خلفه لا تكاد تسر اجسامهن ولست اوم الخفاس في ذلك

لأنه غير مضطر الى تحمين بضائعه وتزوين جواريه ومن مبررات في كل ساعة للبيع . وكانت شعورهن مضطربة في عشرات من الجدائل الصغيرة الدقيقة وجوههن لامعة من طلاء الشمع والزيت على عادة البلاد التي اتين منها . وكُن لابسات في ايديهن وارجلهن وانفهن واذا لهن كثيراً من الاسورة والخلخال والاقراط النحاسية وعلى سواعدهن وصدورهن الوشم الأزرق وعلى وجوههن آثار خطوط وتدوب مما يزيدهن قبحاً . وقيل لي انهن جليين من السودان وسنار . ورغمما عما كن فيو من نصارة الجسم وزهو الصبا لم تقل نفسي الى اقتناء جارية منهن لاني رأيت في سخامة شفاههن ويروز الفك الاسفل واتساع ربيعة وجوههن وانخفاض جباههن مما يجعلهن في نظر الاوربي قبيحات جدّاً وهو لم يعود نظره بعد هذا النصف من النوع الانساني فاذا لم اجد جارية منهن تصلح لي فان قصور العطاء وسرايات الامراء لني حاجة الى مثل هؤلاء الجواري لتليهن بالخدمة المنزلية وهن موصوفات بقوة الجسم والنشاط والهمة والصبر على الخدمة والاعمال الشاقة

ورأيت في غرفة اخرى جوارى لوبيات اقل قبحاً من الاوليات واصغر سناً واهنى لوناً ولو كنت غنياً وقعدت ان اقضي الحياة في البذخ والتنعيم حسب المعيشة الشرقية المترفة لابتعت كثيراً من هؤلاء الجواري ولكني كاتح عابر سبيل لا اريد سوى جارية تصلح لخدمة منزلي . فطلبت من النحاس ان يريني احسن مما رأيت فقال لي ان ذلك منوط بمقدار ما ادفعه من المال ثمتاً للجارية فقلت - وكَمْ ثمن الجارية من هؤلاء السودانيات والنوبيات فاجاب كيسان . وعلمت ان الكيس خمسمائة غرش او ١٢٥ فرنكاً وقال لي ايضا اذا اشتريت جارية فلك ان تردّها في مدة ثمانية ايام اذا رأيت فيها عيباً . فقلت له اريد جارية احسن مما رأيت . فاخذني الى مخاض اخرى وقينا كثير من الجوارى النوبيات وهن اصغر سناً واكثر نضارة وافل قبحاً من السابقات الا انهن كلهن من صنف واحد . ثم عزم النحاس ان يرين من يابهن حتى يريني نصارة اجسامهن وانجدال عضلن ومرونة صدورهن فاستهجن هذا الامر . وهؤلاء اللتيات المسكينات الازداجات كن طوع امر سيدهن لا بل كن يضجرن وبهمي كان هذا العن مأرب حسمن وقد تعودت وذلك ما جعل هذا المنظر المستهجن اقل تأثيراً في نفسي وكل واحدة منهن عالة انها خلقت اراشعت من بلادها لاتبقي اسيرة عند النحاس بل لتباع لسيد تقيم عنده وربما اقيمت حظوة لديه وحسنت حالها وصلحت معيشتها . ثم قلت لعبد الله ان يسأل النحاس عن الجوارى الحبشيات فاجابني عن لسانه

ان الحبشيات لا يمرضن عادة للفرجة الكلي قادم او متفرج من السياح والغريباء بل لمن
تأكد الله انى بقصد الشراء حتمية . وعندا ذلك فالحبشيات اظلى ثمتا من غيرهن والراحدة
منهن تسوي ثلاثة او اربعة اكياس . وهن نادرات الوجود الآن وفي بعض السفين لا يأتي
« الجلابية » الا بضع جوارب منهن . ثم اشار الي ان انتي من بين السودانيات جارية
دقيقة فاجبت لا اريد سوى حبشية . فقال لي عبد الله اذا فلنذهب الي وكالة اخرى في
خان جعفر او خان كوجك . ولما علم التفاس بمرضا علي التسحاب من عتدم الي وكالة اخرى
من غير ان تشري جارية منه قال لي انه جلب عددا من الجوارب الحبشيات ولكنهن وضعين
في وكالة خارج المدينة كي لا يضطربن بدفع عتمن رسم الدخولة وعرض علينا ان نصحب
الي هناك لكي نراهن . فقلت له لا بأس حيا بنا

خرجنا من هناك واجتازنا شوارع كثيرة الي ان خرجنا من المدينة شمالا وسرنا بين
مدافن على اكام وتلال والطريق هناك مقربة بشور عشيرها التام في الهواء فيجب عنا الجاذبة .
ثم انحدرنا الي سهل واسع بقرب من حصن قديم يقال له باب المذبح وعلى مقربة منه جامع
تداعت جدرانها لثراب تترجنا من الحبر واستقبلنا عند باب فضاء واسع بعض الثريان .
وفي وسطو خيام منصوبة وضعت فيها الجوارب وعندما دنونا من تلك الخيام بلغ الي سمنا
جلبة وضوضاء فادخلنا الجلاب الي الخيمة الاولى وفيها بعض الجوارب السودانيات فلما رجع
نظرهن علي استغرقن في الفحك كغيرهن . وفي وسط الخيام ساحة نيبا بعض جوارب يعملن
في النسل والطبخ . واجتذب نظري جارية واقفة عند موقد النار تحرك الطعام في حلة
كبيرة قدنوت منها ورأيتها تطبخ نوتا من الحبوب ولما وقع نظري عليها دمشت من اعتدال
قوامها وتناسب اعضاء وجهها وصفاء لون بشرتها وسلوها سمجة من الجمال قدسدت ان ابدأ
الحديث معها بلفظة « طيب » فلم تمرني ابتهاجا ولم تلتفت الي وظلت مكبة على عملها فحولت
عنها الي باقي الجوارب فلم استحسن واحدة منهن وتقررت من رائحة اللحم والزيت المدهونة
به شعرهن واجسامهن . وقال لي عبد الله ان ذلك من نوع القلي والزينة في بلادهن .
وكنت كما دنوت من واحدة منهن اطلب مني « بقشيشا » فاحذت بضعة فرنكات ودفعتها
للتفاس لكي يوزعها عليهن وخشيت ان بتأثر بها فقلت له وزعها على مرأى مني فقال
انهن لا يعرفن قيمة النقود ولا يدريين ما يصنعن بها والارلى ان اوزع عليهن اشياء
اخرى قيمتها ثم احضر من قدار من التمر الناشف والطبخ والتبغ وزجاجة من الرق
ووزعها عليهن فانظرن السرور والانبساط وبدأن يرقصن امامي علامة الشكر على هديتي .

واما الجارية الطويلة التي جذبت نظري فلم تحرك من مكانها ولم تشرك مع رفيقاتها بالمرور كأنها تأنف ان تساوي نفسها بين قدسوتها وحدقت في وجهها فظهرت النور والالفة واخيراً وقعت عينا على كتي وعليها قفازان من جلد اسود فظهرت الدهشة والاستغراب كيف ان لون وجهي ابيض وبداي سوداوان فتركت عملها ووقفت تنظر بحيرة الى هذا الاس الغريب الذي لم يشركه عقلها الساذج ولكن ازيد دهشتها وضعت يدي وراء ظهري وزعت عنهما القفازين ثم اظهرتهما مجردتين فذعرت من هذا التعبير القباي وظننتي ساحراً بغرت من امامي وهي تصرخ برعب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا عفريت هذا شيطان » فذعرت رفيقاتها فابتعدن عني وهن يتظرن الي شيزراً ثم دتوت من عبد الله وقالت له لقد اعجبني تلك الجارية الواقعة تطيح عند الموقد فكيف يبلغ ثمنها ؟ اجاب ان هذه الجارية لا يبيعها صاحبها لانها محظية وهو يرجو ان تلد له ولداً وحينئذ امانه ينعقها ويحطبها زوجة له واما انه يبيعها بشئ طائل كرضعة ولأدة فتأثرت من هذا الجواب ثم قلت له اليس عنده جارية حشية لان نفسي تعاف مرأى هؤلاء الرعفيات فقال ان الحشيات نادرآت الوجود الآن وأشار الي ان انتظر مدة يومين عند وصول الحاج من مكة . وكثيرون من تجار الجوارى « الجلابة » باتون معهم ويحلبون جوارى حشيات وتركيات وهنديات وغيرهن من جزيرة العرب وسكان محيط الاوقيانس وقال ان الحاج سيقفون في سهل بعيد عن المدينة يقال له « بركة الحاج »

ثم خرجنا من تلك الوكالة ولما وصلنا الى باب المذبح ومرنا في شارع الحسية رأينا رجلاً تركياً يتبعنا وقد خرج من تلك الوكالة يقود امامه جارين سودانيين اشتراها فلاحت متي نظرة اليها فرأيتها تبكيان والدموع ملأ اعينهما ولا اعلم لماذا تبكيان هل كان ذلك حزناً على فراق رفيقاتهما ام فرحاً لتخلصهما من اسر الخناس وضطف العيش . ذهبتا وهما لا تعلمان ما خبأ لها الزمن هل تكونان في بيت من اشتراها كحظيتين ام ككاهنتين

— مريح في القاهرة —

اجتزنا بشارع الحسية ثم سرنا في طريق على محاذاة خفة الخليج وعند آخره يتفرع بين حي الافرنج وحارة اليهود ثم سرنا في الموسكى وعند مدخل واغورن بالقرب من الفندق (خمارة النيل القديمة) رأيت اعلانات بحروف انجليزية معلقة عند مدخل قهوة كبيرة علت منها ان ستمثل تلك الليلة رواية فرنسية يقوم بتشغيل ادوارها نخبة من الافرنج غواة التمثيل لاعانة جمعية العميان الفقراء وهم في مصر كثيرون جداً فصرفت ترجماني عبد الله وذهبت

وتناولت المشاء في الفندق وعند الساعة التاسعة ذهبت الى الملعب فرأيت ساحة وأغورون خبيقة على سمعتها وقد ازدحمت فيها انداء الذين قدموا لحضور التمثيل ومن المتفرجين والمارة والغلمان والمسلمين والحارة والصراخ متواصل من كل جهة « بقشيش بقشيش » كما رأوا افرنجياً داخلاً

فدخلت الى الملعب ورأيت مكثظاً بالرافدين والمقاعد النقى ملائى بالجالسين من الطليان والاروام والمالطيين . وفي المقاعد الامامية قرب جوق الموسيقى كثيرون من النساط لاتراك والباشارات . واما الاتراج فكلها ملائى بالنساء الافرنجيات والشرقيات ومعظمهن من السوريات وهو لاه أكثر من جبهة وزينة واغمر من ملبأ وحلية وقد نزعن الطبرات عن رؤوسهن وجلسن سافرات الوجوه . وترددن الكشير بين احياء مصر والى متزهاتها وكنائسها جعلني خبيراً بالتمييز بين اصناف المسيحيين نساء ورجالاً فالنساء السوريات والمالطيات وبعض الايطاليات المذونات في مصر من زمن طويل يلبسن على رؤوسهن الطربوش الاحمر المطوق بالصائب المقصبة . واليونانيات يلبسن طاقية حمراء مطرزة بالشريط الشعبي يقال لها في اللغة الرومية « تانيكوس » والنساء الارمنييات يعرفن بوضع الشال على اكتافهن والخطاء الابيض على رؤوسهن . واما اليهوديات فحيث يحرم على المتزوجات منهن اظهار شعورهن لاجتي حسب المذهب الرباني التلودي يلبسن على رؤوسهن قبة من ريش الطيور تنطلي الشعر . واما اثواب النساء فتختلف بين الاروبيات والشرقيات وهو لاه الاختيارات وخصوصاً السوريات والتركيات يلبسن ثوباً من الحرير مزركشاً بالقصب لصيراً الى الركبتين حتى تظهر تحته اطراف لباس خنم معقود عند كاحل الرجلين يقال له « شنتيان » والثوب متفرج عند الصدر اقتراجاً واسماً حتى تبرز النهود وهو مشقوق من الجانبين حتى تظهر اخصرتان . ويتنطقن بمنطقة من الحرير الملون في اوساطهن . وهذا النوع من الزي ورد اخيراً من اسطنبول مع النساء التركيات والشرقيات ويقال له عندهم « اليكك » وكان قبلاً شائعاً في اوربا منذ بدء القرن الماضي . اضيف الى ذلك ما يلبسن من الخلى والاقراط وما على رؤوسهن من الاحلة المرصعة بالماس والحجارة الكريمة وحول اجيادهن من العقود واللآلى . في هذا الملعب معرض الجلال والزي الشرقي على اختلاف انواعه رابطة القفظة الشرقية . وهذا الجلال ليس طيباً صرفاً لاني رأيت أكثر النساء يبدلن ما في ومعهن ليظهرن جميلات مكحلات الديون مزججات الحواجب . بيضات الوجوه محمرات الوجنت برسم وجوههن وجباههن بشامات سوداء على عادة اهل القرن الماضي في

اوربا الا انها اطلت في فرنسا بعد الثورة الفرنسية واما شعورهن فمصبوغة بنبات يقال له الحناء كان لونها الطبيعي لا يجهن . فالمرأة الشرقية بما عليها من الزينة والحي والجواهر عنوان منزلة اهلها المالية والادبية فحصل على جمعها ثروة زوجها . واما النساء المسلمات فلم يكن في المرح منهن سوى بعض التركيات وكن محجبات وقيل لي انه لم يكن بينهن امرأة واحدة مصرية

ثم فتح السار ومثلت رواية من نوع الفوديل وكانت المسئلة الاولى مدام بولوم صاحبة المكتبة الفرنسية التي سبق ذكرها . وعند انتهاء التمثيل خرج الجميع . اما النساء اللواتي وصفتهن فخرجن محبرات بالسواد ساترات الوجوه بهرفع ابيض يقال له « برغوث » وسار خدمن أو رجالهن يحملون امامهن الشموع والفنارات ومن كن يكن في مكان بعيد ركن الحبر وذهبن

- الحلاق -

في اليوم السابق من وصول الحمل وركب الحجاج فكرت في مشورة مواطني جان وهي ان ابدل زيي الافرنجي بزي عربي لئلا اعرض نفسي لخطر او اهانة من المخاربة التحمسين . وكنت قد اشتريت قبلاً مثلياً من الصوف فاخذته وذهبت الى صديقي المصور ورجوت منه ان يأخذني الى حلاق يعرفه فخرجنا معاً واجتازنا شارعاً طويلاً على جانبيه دكاكين الاروام والارمن (بين السوريين) ثم دخلنا الى دكان حلاق مالطي تطل نوافذه على ترعة الخليج . فخر شعري الطويل وترك خصلة منه في ام رأسي حسب عادة المسلمين واسلخ من شأني خلافة وغسلاً وتزييناً ثم اشترينا طربوشاً احمر مغربياً وطاوية بيضاء تلبس تحته دائرها مزركش بخيوط حريرية . وهذا النوع من الطرايش يصنع في مدينة « تور » احدى مدن فرنسا ويزد منها الى كل بلاد المشرق . ولكي استرليامي الافرنجي اشتريت سروالاً واسعاً من الجوخ الازرق فوقه صدرية حمراء مخزومة الطرف بشريط وازرار فضية ولما لبست هذا اللباس وضعت على رأسي الطربوش اتدلى عليه الطرزة الطويلة من الحرير الازرق وتدفرت بالشلح الابيض على كتفي قال لي الحلاق والحاضرون انه يحق لي الآن ان اسمي « شلي » وهي كلمة تركية تطلق عندم على كل شاب حسن الهندام . وقال لي المصور اني صرت بزي هذا اشبه اميراً سورياً لبنانياً وصل حديثاً من مبداء او بيروت

- ركب الحجاج -

وفي صباح اليوم التالي ذهبت مع صديقي المصور وترجماني لتفريج على ركب الحجاج

وكانوا قد وصلوا قبل يوم ونزلوا مع الحمل في بركة الحاج بالقرب من المطرية . فاستأجروا الخيل وخرجنا من باب الفتوح ورأينا في طريقنا جماهير الناس ذاهبين الى ذلك المكان بين مشاة وفرسان وعرباً راكبي الجبال وقد غصت بهم الطرق والسهول . ومرت فرقة من حرس الباشا الزافي بالسلحها اللامعة وخوذاتها النحاسية ورماحها الطويلة . وصلنا الى سهل واسع عند توة الخليج بالقرب من المطرية . وكانت هناك خيام مضروبة واعلام مرفوعة لاستقبال الحجاج الوافدين . وبلغ عدد من في هذا العام كما قيل لي ثلاثين الفا بين مصريين وانراك ومطربة من مراكش والجزائر ونونس . ومرت فرق عديدة من ارباب الطرق باعلامهم وشاراتهم المختلفة (١)

— السيد عبد الكريم —

في صباح اليوم التالي ذهبت مع ترجماني الى سوق الجوارس في سوق العزي Bonk-el-Ezzi (٢) بعد ان لبست ملابسني الجديدة الشرقية لثلاثي الجوارس في كاتن في المرة الاولى فوصلنا الى منزل ذي رجة واسعة يدعى بيت الكاشف كان قبلاً لاحد امراء الماليك وفي صدره ايوان واسع باعمدة من رخام حوله مقاعد ووسائد مرصدة . فرأينا رجلاً اسمر اللون بدين الجسم واسع الصدر متربعاً على المقعد وهو يدخن لرجيلة وامامه كاتب قبطي جالس على الحصر معه ادوات الكتابة ويظهر انه كاتب مرمو

فلما صعدنا الى الايوان استقبلنا الرجل بترحاب ولطف . وقال لي عبد الله هذا هو السيد عبد الكريم من اشهر واكبر الجلالة تجار العيد والجوارس . ثم وضع عبد الكريم يده على صدره وجهته ورحب بي بقوله اهلاً وسهلاً . فرددت عليه السلام وادركت من لهجة العربية اني افرنجي ثم دعاني للجلوس بالقرب منه على المقعد وامر ان تقدم لي القهوة والرجيلة واما ترجماني فجلس عند طرف الايوان وكان يترجم بيني وبين عبد الكريم فذكر لي منزلي ورغبتي في هذه الزيارة واني اطلب جارية تقوم بخدمتي مدة اقامتي بمصر وذكر له اني استأجرت منزلاً وفرشته وجعلته صالحاً للمعيشة العائلية . وكان عبد الكريم يكتفي من حين

(١) وهنا وصف السيد المرمو في شارع القاهرة ووصول الحمل الى اقلية واستقبال محمد علي باشا وانجاله واعضائه اسرته والعلماء والاشراف له ما لا يخرج وصفه عن حد المحلات المتدنية التي تعمل الآن . وانتق ان ذلك اليوم كان عيد مولد النبي ايضاً فوصف ما رآه في المساء من الزبدات ومعالج الافراح في المجموع والمذاكك ونسور العذراء والملاعب المختلفة في ساحة الازبكية والعبدة المنصرا ما لا داعي الى ذكره

لآخر بلغة ايطالية شجية وظهر لي من حيث هو وحده نظره انه في غاية الذكاء والاقدام ولا تخبر ملاحظته من المكر والسهاء ولا يدع فائده حجاب البلاد وخبر العباد وطاف في مجامع اربقية حتى الحبشة وسواحل بلاد العرب وخليج المعجم الى المحيط الهندي . ورأيت في عينه نوراً جذاباً وسلطة على ارادة من ينظر اليه ثم نزلنا من الايوان ودخلنا عرصة وراء المنزل قرأنا بعض الجوارى النوبيات والسودانيات ثم اقبل بعض المشتريين فتركنا عبد الكريم وذهب لاستقباله وكان يمرض عليهم كل جارية بمفردها ويطلب باوصافها ويعري اكتافها ويقرع بكفه على ظهرها وصدرها ليريمهم قوة عضلاتها ونومة جميعها وقد ساوم احدهم على جارية سودانية واشتراها . ثم رجع عبد الكريم اليها وادخلنا الى دهليز طويل في المنزل حوله غرف ومخادع عديدة ورأينا في فرصة داخلية بعض السود المعروضين للبيع ولما امنعت النظر فيهم رأيت بينهم رجلاً طويل القامة نحاسي اللون على كتفه شلح عخطط وله شعر طويل مستمر على وجهه وملاحظته تدل على الرفار والرزاقه والاتقة . ورأيت على دةشة متي في يده سلسلة او قيداً من الحديد فرائي هذا الامر ولما سألت عبد الكريم عنه قال . انه امير من امراء الفلا بجوار الحبشة امر في الحرب مع قبيلة اخرى معادية باعبته لتفاسين وانما قيد بالحديد لئلا يؤذي نفسه او احداً غيره اذا اطلق سبيله لانه يغور انوب يأتي الاسر ترغماً واستكباراً قلت عطفك اليد واسفت على حاله

ثم ادخلنا عبد الكريم الى قاعة واسعة رأيت فيها سرباً من الجوارى الزنجيات والنوبيات الا انهن اصغر سناً من رأيتهن قبلاً . وكمن يقهقن ضحكاً وينتبن طرباً الا واحدة منهن كانت متروية تبكي وتقم الى صدرها طفلاً رضيعاً وربما كانت تبكي حثاثاً على اينها الرضيع وهي لا تعلم هل يباع معها ام يفصل عنها تحولت نظري عن هذا المنظر المؤثر وانقطر قلبي شفقة على تلك الام المسكينة اليمسة . ولم استطع كتمان غيظي وانفعالي فقال لي ترجماني يعرودة لا تجزع ولا تأخذك الشفقة عليها فهذه الجارية مملوكة احد الافندية من موظفي الحكومة ارنكت زنى او عصت امر سيدها فلنكي يؤدبها احضرها الى هنا موها اياها بانه يريد ان يبيعها ولكنه اوصى السيد عبد الكريم ان يحفظها الى ان يأتي اليوم او غداً ويترجمها ولا اعلم مكان هذا الكلام من الحقيقة . أليس من الغرابة ان تبكي جارية خروفاً من الدتق ؟ ان العبيد والجوارى لا يشترون في مصر وكل بلاد المشرق الا للقيام بالخدمة المنزلية والحسان منهن . يقمن عند اسياذهن . قام الزوجات بخلاف الرق في امريكا الجنوبية والبرتوغال والبرازيل حيث يشترون العبيد والجوارى للاشغال الشاقة في حرث

الأرض وزرعها والتمدين . أنيس الرق في الاسلام اخف وطأة منه عند المسيحيين المتدينين ؟
 أنيس باي تونس اسلم الرق في بلاد و قبل ان تلغية هولندا والبرتغال في استمراتها ؟
 - الجوابة -

صعد عبد الكريم الى منزل حرمه ورجع وقال لي ان في حرمه بعض الفتيات الحبشيات
 وهو كثير الاهتمام بهن حتى انه سمح لمن ان يأكلن على سفرته مع اسرتيه وباطلن . كما
 يعامل اهل بيته . وانه امر ان يزلن الى عرصة الدار لكي ارأهن . فجلسنا نتنظر في الايوان
 وبعد ساعة فتح باب داخلي وخرج منه مرب من الفتيات يملن نحو خمس عشرة جارية
 وكهن حبشيات نحاسيات اللون . خرجن من الباب يدفع بعضهن بعضاً ووثبن الى قنا الدار
 ركضاً ولفزاً كأنهن فتيات خرجت من اقتاصها او ثبات خرجن من قاعة الدرس الى صاحة
 اللعب . ثم ذهبن الى حوض ماء كبير واخذن يلعبن برش الماء بعضهن على بعض . فهو لاد
 المكينات يحسن انفسهن على شفاف الانهر في بلادهن . يسرحن مرحاً على مرأى من اعين
 اسابهن ولا يملن ما خبا لمن الدهر والامر من الكوارث

فامعنت نظري فيهن فاذا هن جميلات متناسبات الوجوه واسعات العيون . وقال لي
 عبدالله ان كثيرات منهن بمن اختياراً او احضرن برضاهن قصد الميع للطن . يحدث
 مستقبلاً حسناً سعيداً . ولما سألت عبد الكريم عن ثمن الجارية منهن اجاب اربعة اكياس
 (٢٠٠٠ غرش) لان الحبشيات يعن غالباً بشن اغلى من النوبيات والسودانيات . ثم عرض
 علي ان يريني منزل حرمه وقال لي ان عنده ايضاً جوارى آخر اغلى ثمناً واحسن شكلاً .
 فاصعدني وحدي الى الطبة العليا واراني في احدى الغرف خمس جوارى حبشيات على جانب
 عظيم من الجمال وكلهن صغيرات بيمون واسمة وانوف معتدلة وشفاة رقيقة ووجوه مستديرة
 لا فرق بينهن وبين اجمل النساء الاوريات الا في لون البشرة النحاسي فلجارية منهن تشبه
 في جمالها قتال ازهرة الرخامي الابيض الذي أكد لونه من حرارة الشمس وطول الزمن .
 وقال لي عبد الكريم انهن نصرانيات من صميم الحبشة . فوقعت في حيرة لا اعلم من اختار
 منهن لانهن متماثلات في كل شيء . وحينئذ كانت مني التفاتة فرأيت جارية واقفة عند
 باب المدخ فلما وقع نظري عليها دهشت اذ رأيت امامي فتاة بديمة الجمال حسنة القوام لونها
 اصفر ضارب الى البياض عيناها لوزيتان ناصرة الجسم فادركت لاول وهلة انها من الجنس
 الاصفر من سكان جاوه او جزائر المحيط الهندي فاقتربت قليلاً منها فرأيت من لمعات
 عيناها الجذابتين ونومة بشرتها ما جعلني اسبل اليها . ولما رأى عبد الكريم كثرة تحديقني

بها ولحق بي إليها وضع يده على كتفي برنق وقال لي « بونو بونو مولدو بونو »
ثم زلنا إلى الأيوان ودار الحديث بيننا على هذه الفتاة بواسطة ترجماني فقلت إنها
وصلت بالأمس مع ركب الحجاج من الحجاز وأن بعض قرصان العرب في عمان أسروها من
بلادها وهي صغيرة وباعوها لأحد أمراء مسقط في خليج العجم . ولما توفي باعها ورثاؤه مع
ما باعوه من تركته لأحد مشايخ الحجاز في مكة وهي لم تبلغ بعد سن الحلم وهذا باعها في
حوسم الحجاج للنحاس . وقال لي عبدالله أن السيد عبد الكريم وضعها مع حرمه عند وصولها
إس . ولما رأى مني استكثراً أهدى ما أريد فاقسم لي اعظم الإيمان أن السيد عبد الكريم
لا يأتي بعمل منكراً أمام حرمه لئلا ينجب من خطين عليه وعدا ذلك فهو متدين لي قضى الليل
كله في الجامع ينسلي حرمة لعيد مولد النبي .

ثم دارت المناقشة بيننا على الثمن فطلب عبد الكريم خمسة أكياس ثمناً لهذه الجارية
المجاوية (٢٥٠٠ غرش) وقال لي عبدالله أن السيد يأتي عادة أن يساوم في الثمن . فقبلت
ورأيت من العار المساومة على ثمن امرأة . ولما سألتها عن اسمها قال لي أن اسمها « زنب »
ففسر علي لفظ ثلاثة حروف ساكنة وأخيراً علت ابن زنب هو اسم زنب في لفظ عرب
اليمن وعمان . ثم كتبت للسيد الكريم تحويلاً في الثمن لأحد الصيارفة الأفرنج المودعة
عنده أموال واستلمت الجارية وخرجنا من هناك ووافقتنا أحد خدمة عبد الكريم يحمل
صندوقاً صغيراً قال لي أنه يحوي على بعض ثياب للجارية كانت لها عند سيدها الأول في عمان
ولم نصل إلى المنزل إلا عند المساء وكان مردوداً من حارة اليهود إلى الخرقة فوصلنا
إلى دار عظيمة واسعة الزخاب لأحد كبار مشايخ الطرق يقال له السيد البكري فدخلنا ورأينا
أزواجاً عظيمين في فناء الدار ونحو ستين أو سبعين شيخاً خاشعين ساجدين على أيديهم وركبهم
والشيخ البكري راكب على جواد مطهر وعلى كتفيه برنس أبيض مشع به وهو ينقل الجواد
على ظهور هؤلاء الناس والنشدون من حولهم بذكر اسم الله ويرتلون الآيات . وقال لي
عبد الله أن هذه الحفلة تدعى « حفلة الدعسة » تعمل في السنة مرة في عيد مولد النبي وأنها
من الخوارق والنجائب لأن بركة هذا الشيخ وصلاته يحفظان وطاة الجواد عن ظهورهم
ويعلمهم بشعرون بالسرور والارتياح ولم يحدث قط في هذه الحفلة عطب أو ضرر لأحد من
العباد من حوافر جواد الشيخ الشريف

وفي المقالة التالية ما جرى لهذا الشايع مع جاريته من الحوادث الغريبة

ديمتري نقولا